

جماليات القصيدة الشعرية العربية المعاصرة

- مفدي زكريا نموذجاً -

Aesthetics of the contemporary Arabic poem Mufdi Zakaria -

عبد الرحمن بن زورة

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم (الجزائر)

abderrahmane.benzoura@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2022/10/01

تاريخ القبول: 2022/05/05

تاريخ الإرسال: 2022/03/01

الملخص:

سحر الشعر كسحر العطر، لا يمكن لصاحبه أن يحاصره أو يحبس عنه حوله، أو أن يمنعه عن الناس، والقارئ الذواق يجد لشعر مفدي هذا الأثر الطيب في النفوس، وهذه الخواطر الوثابة إلى الدّوات، وقد خبر الشاعر هذا المعنى الطّيف فقال: "أما الشعر فأننا فيه أستاذ نفسي". ف شعر مفدي زكريا من أرفع ما عرفت اللغة العربية عبر عصورها، ومن عيون الشعر لدى الفحول الكبار أمثال أبي الطّيب المتنبي إلى أمير الشعراء أحمد شوقي إلى شاعر الأمة الأكبر محمد مهدي الجواهري، وقد جمعت القصيدة لدى شاعر الثورة جماليات القصيدة العربية المعاصرة على مستوى الشكل والمضمون. وهذا الذي تسعى الورقة البحثية إلى استجلائه والتّمثيل له وفق مقارنة تحليلية أسلوبية.

الكلمات المفتاحية: مفدي زكريا؛ القصيدة المعاصرة؛ الموسيقى؛ التناص والتكرار؛ التوهج.

Abstract:

The magic of poetry is like the magic of a perfume, the owner cannot besiege him or confine him to those around him, or prevent him from the people, and the reader who reads good poetry finds this good effect in the souls, and these constant thoughts to the self, and the poet told this pleasant meaning and said: Psychologist. " Mufdi Zakaria's poetry was one of the highest levels of what the Arabic language has known throughout its ages, and from the eyes of poetry in the era of adult stallions such as Abi Al-Tayeb Al-Mutanabi to the prince of poets Ahmed Shawky to the great poet of the ummah Muhammad Mahdi Al-Jawahiri.

This is what the research paper seeks to clarify and represent according to a stylistic analytical approach.

Keywords: Moufdi Zakaria; Contemporary poem; music; intertextuality; repetition and glow.

1. مقدمة:

"إنّ الأمم العظيمة النّاجحة في تاريخ البشرية هي التي تحيي ذكرى التّوابع والأبطال والأخيار من أبنائها في قلوب نشئها الصّاعد"، حتّى يقتفي الأثر، ويأخذ العبر. يقول الشاعر: وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان علّمه أبوه.

وشاعرنا مفدي زكريا أحد هؤلاء الذين بنوا المجد في الجزائر الحبيبة، فهو شاعر الثورة، وشاعر المغرب العربي الكبير، وأحد فرسان النّظم في الشّعر العربي الحديث والمعاصر في الوطن العربي، فقد كان بركانا من الشّعر، وثائرا فعلت قصائده بفرنسا وجنرالاتها الأفاعيل.... فطوبى لوطن يملك شاعرا كمفدي زكريا، ودارس شعره لا شكّ واجد خصائص القصيدة العربية المعاصرة بكلّ سماتها الجمالية، وفي هذه الورقة البحثية نسعى إلى استجلاء ذلك، من خلال قصيدته الشهيرة "فلسطين" من منظور أسلوبه يعتمد التحليل والتّمثيل.

2- على سبيل التّناص:

صدق مفدي حين قال عن نفسه "أمّا الشّعر فأنا فيه أستاذ نفسي" (1) وإنّك حين تجول وتصول في ثنانيا قصائده تخطر ببالك قصائد الشّعراء العظام، وتتساق إليك أفكارهم الجميلة ومعانيهم الرّاقية، وتطرق باب ذاكرتك عيون أشعار العرب، وتتقاطع في سيرته مرايا عديدة من سيرهم: ، وقد خبر الشّاعر الحكيم أبو تمّام هذا المعنى اللّطيف فقال :
ولولا معان سنّها الشّعر ما درى بناء العلا من أين تأتي المكارم.

1- يتقاطع مفدي زكريا مع الشّاعر أبي فراس الحمداني (320/357هـ)، القائل عن نفسه: زين الشّباب أبو فراس لم يمّتع بالشّباب. وهو القائل:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي اللّيلة الظّلماء يفتقد البدر

ففي البيتين معنى يتوافق وتصريح مفدي قبل وفاته "بعد موتي سيعرفون قدرّي ويردّون لي اعتباري" حيث لم تفتأ أجيال الجزائر تذكر مربّيها، وناظم نشيد ثورتها الذي تترنّم به النّاشئة في كلّ صباح و في كلّ مساء. ورحم الله شاعر الثورة الجزائرية محمد العيد الذي عبّر عن هذا المعنى اللّطيف: (2)

إنّ الجزائر لم تزل في نسلها أمّا ولودا خصبة الأرحام
تلد التّوابع من خطيب مصقع أو شاعر يفتن أو رسّام

2- وفي مفدي حضور قويّ لشاعر العصر العباسي — بلا منازع — أبي الطيّب المتنبي(303هـ/354هـ) حكمة بالغة وجرأة حادة وطموح زائد وكبرياء وشموخ، ومنزلة مرموقة عند الملوك والرؤساء(الملك المغربي الحسن الثاني) و(الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة) استحقتها مدحا وترفعاً عن الرّزايا واستعلاء بالمزايا، صونا لنفسه عما يدنسها من كلّ جبس. يقول المتنبي: لولا المشقة ساد الناس كلّهم الجود يفقر والإقدام قتال. ويقول مفدي عن الجزائر: تنبأت فيها باليادتي فأمن بي وبها المتنبي.

ويقول أيضا: رسالة الشعر في الدنيا مقدّسة لولا النبوءة كان الشعر قرآنا .

3- وفي مفدي يقف — شاخما — شاعرُ الحكمة وفارس الكلمة أبو تمام الطائي(188هـ/231هـ) بما أوتي من رأي سديد وحكمة بليغة ولفظة منتقاة، ومواقف رجولية ونخوة عربية مشرفة، شجاعة وشهامة وإيباء.

قال أبو تمام في بانيته المشهورة عن فتح عمورية:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجدّ واللعب

بيض الصفائح لا سود الصفائح في متونهنّ جلاء الشكّ والريب

ويفتن مفدي بهذه القصيدة وبمناسبتها فيكتب مثلها عن ثورة التحرير فيقول:

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام

والنار أصدق حجة فاكذب بها ما شئت تصعق عندها الأحلام

إنّ الصفائح للصفائح أمرها والحبر حرب والكلام كلام (3)

4- وفي مفدي نفحات غزار، ونسائم عليلة تذكّرنا بشاعر الأندلس ابن

زيدون(463هـ/1071م) فرارا من السّجن، ومعاناة جرّاء مطاردة عيون الرّقباء والأعداء. يقول

ابن زيدون: (4)

أضحى الثنائي بدلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

يعارضه مفدي فيقول:

سل العروبة هل ضجّت لكشوانا وسل أمية هل رجّت لبلوانا

ويا ذرى الشّام هل هاجت مواجدنا؟ فبارك الشعر في ناديك لقيانا؟

ويا دمشق هل ابتلت جوانحنا بعد الثنائي الذي قد كان أضنانا (5)

5- وفي مفدي طيف شاحب حزين من شاعر السيّف والقلم محمود سامي البارودي (1838م/1904م)، مشابهة تقوم على النّضال الثوري الطويل، والتكوين الأصيل، والريادة في النهضة، والتجربة الصعبة الأليمة، نفيا واغترابا في سرنديب طيلة 17 عاما، وقضى مفدي أكثر من ذلك متنقلا بين بلدان المغرب العربي، حتى أعياه المرض فمات في تونس ولم يحظ بموتة داخل وطنه كما حظي بها البارودي على الأقل. في مفدي حضور قوي للشاعر الأمير عبد القادر (1808م/1883م)، يقاسمه الوطن الواحد، والعلم الواحد والهمّ الواحد، والعدو الواحد 'فرنسا' ويقاسمه أيضا الموت خارج الوطن، ولذلك تجده يُعلي شأنه ويرفع قدره فيقول له:

أيا عبد القادر كنت القديرا وكان النّضال طويلا عسيرا
شرعت الجهاد قلباك شعب وناجاك ربّ فكان النّصيرا

6- في مفدي يقبع شاعر الأمة الأكبر محمد مهدي الجواهري (1899/1997) الشاعر العراقي دفين مقبرة الغرباء بسوريا، مشابهة تقوم على العراقة والأصالة والنبل والشرف، والمصير المتشابه، من مطاردة، ومصادرة للأمل، إلى الموت في الغربة، ومن المفارقات العجيبة أن شاعر الأمة الأكبر (الجواهري) صودرت منه جنسيته مرتين من قبل نظام بلده. فإذا كان أمثال هؤلاء العظماء يموتون ويدفنون خارج أوطانهم - فبركم - من يستحق أن يموت فيدفن في هذه الأوطان؟؟ يقول الجواهري معبرا عن شوقه إلى وطنه:

حييت سفحك عن بعد فحييني يا دجلة الخير يا أمّ البساتين
حييت سفحك ظمأنا ألود به لوذ الحمام بين الماء والطين

7- وفي مفدي أيضا حضور لصاحب الوصايا العشر الشاعر المصري أمل دنقل (1940/1983)، تقاطعا يتأسس على سمات التّوتر و التمرّد ولبس قناع التاريخ، وتقمّص أدوار شخصياته، وحضور التراث والثقافة الإسلامية، زيادة على طباعه العنيدة وعدم تصالحه مع العدوّ مهما كلف الأمر، يقول أمل دنقل :

لا تصالح ولو منحوك الذهب.

أترى حين أفقا عينيك.

ثم أثبت جوهرتين مكانهما.

هل ترى؟

هي أشياء لا تشتري .

لا تصالح على الدم... حتى بدم.

لا تصالح ولو قيل رأس برأس.

أكل الرأس سواء؟⁽⁶⁾ ويقول مفدي:

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب وطوبناه كما يطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا وقت الحساب فاستعدي وخذي منّا الجواب.
إنّ في ثورتنا فصل الخطاب وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا فاشهدوا فاشهدوا

3- ما هي جماليات القصيدة العربية المعاصرة التي حظي بها شعر مفدي؟
جمعت القصيدة الشعرية لدى مفدي العديد من خصائص القصيدة الشعرية العربية المعاصرة، وفي مايلي بعض هذه الجماليات التي نقف عليها من خلال مقارنة قصيدة فلسطين على الصليب. (حوار بين الشاعر وفلسطين والعرب بمناسبة الذكرى 13 لتقسيم فلسطين) الشاعر: يبدأ القسم الأول من القصيدة فيوجّه نداء موجعا جياشا مثيرا للمشاعر إلى فلسطين، تمتزج فيه قسوة الجراحات الفلسطينية وفداحة التكبّة، المتماهية مع جراحات الشاعر وآلامه، فينشد بكلّ ما أوتي من رهافة حسّ وحرارة نغم.

أناديك في الصّرصر العاتية—وبين قواصفها الذاريه⁽⁷⁾
وأدعوك بين أزيز الوغى —وبين جماجمها الجاثيه
وأذكر جرحك في حربنا— وفي ثورة المغرب القانيه
فلسطين... يا مهبط الأنبياء— ويا قبلة العرب الثانيه
ويا حجة الله في أرضه — ويا هبة الأزل، الساميه
ويا قدساً، باعه آدم— كما باع جنّته العاليه
وأضحى ابنه بين إخوانه — يلقّبه العربُ بـ"الجاليه"
فلسطين، والعرب في سكرة قد انحدروا الكل للهاويه
رماك الزمان بكلّ لنيم— زنيم، من الفئة الباغيه
وفي القسم الثاني ترد فلسطين على الشاعر، فتنبّه أوجاعها، وتحكي له قصّتها التي تدمي القلوب.
فلسطين:

أيّا شاعر العرب ذكرّرتني وهجّت جراحاتي الداميه
لقد كان لي سبب للبقا..... فقطّعوا مني أسبابيه
ورحتُ أباغ وأشـرى..... كما تباع لجزارها الماشيه
وأشـنق في حبل مستعمري... وأصلب في كف جلاديه
ويسلبني عزتي ، غاصبي..... وتنهب داري، قطّاعيه

وفرقتي "الخلف" أيدي سباً وشتت في الأرض أوصاليه
فأصبحت أرسف في محنتي... وقومي عن محنتي لاهية
وفي سكرة ضيعوا عزتي..... ولم يغن عني سلطانيه
وكنت الجزائر في زحفها.. وحققت - بالشعب - آماليه

وفي القسم الثالث يتقمص الشاعر دور العرب المغرر بهم، ضحية أنظمتهم الحاكمة الجائرة التي ركبت الشعوب وخدرتها فأنستها قدسها و فلسطينها .
العرب :

وقال ابن يعرب ، لمّا تيقظ :..... لم أدر من سكرتي ماهيه ؟
ولم أتفطن (لثالوثها)..... ولم أدر من غفوتي ماهيه ؟
وفوضت أمري، للحاكمين..... فضيع قدسي ، حكّاميه
وهام السّراة بنعمى الحياه..... وعاتوا (انتهازا وإقطاعيه
وهل يُرتجى العون ، من معشر: قواعد، طاعمة ، كاسيه
فيا ليتني ، لم أحن ثورتي..... ولم أطف نيرانها الحاميه
ويا ليتها ، لم تكن (هدنة) ويا ليتها ، كانت القاضييه
فلسطين ... لا تيأسي ، إنني..... سأصلح في الشرق - أخطائييه
لئن خنت - فيما مضى - إنه يوبخني- اليوم - وجدانيه
تخاذلت ، وانهار مني الضمير فضيع أرضي خذلانيه
وأهملت قدسي، نهّب الذئاب فألبسني الخزي إهماليه
فإن تصفحي - اليوم - عن زلتي تكفر عن الذنب ، أفعاليه
وفي القسم الرابع نقرأ صوت الشاعر ومعه صوت المجاهدين والأحرار في سبيل الله والوطن
يقول الشاعر:

أنا ابن الجزائر ... من أمة..... على دماها ، تصعد الراية
على دُوب أكبادها ، ترتقي وفوق جماجمها ، ماضيّة
غدوت ، لثورتها ، شاعرا من النار والنور ، ألحانيه
عروبتنا ، في ضمير البقا وشائج، راسخة ، راسيه
فلسطين ... في أرضنا ، بعثها ومن أرضنا تزحف الحامية
فإن تنصروا الله ينصركم وينجز، أمانيكُم الغاليه

1- الالتزام: ارتبط شاعر العصر المعاصر بقضايا عصره من خلال المعاشية والتفاعل لا الفرجة والوصف، فالشاعر مفدي زكريا أعطى مثالا يحتذى به في الوطنية والتضال والالتزام بقضية الثورة الجزائرية، التي شكلت دورها أنموذجا في الذاكرة التاريخية للشعب، كما كان شاعر عروبة وقومية يتجاوب ويتفاعل مع ما يحدث حوله، ويتجلى هذا المفهوم في المكانة التي حظيت بها القضية الفلسطينية عنده، والمنزلة التي احتلتها في أشعاره، فهو لم يزل يذكرها، ويذكر بضرورة اقتفائها لطريق الثورة التحريرية الجزائرية فيقول:

فليت فلسطين تقفو خطانا وتطوي كما قد طوينا السنين
وبالقدس تهتم لا بالكراسي تميل يسارا بها ويمينا
ويقول على لسان فلسطين:

وكنت الجزائر في زحفها وحقت - بالشعب - آماليه
2- خاصية الشعر القصصي :

تشيع هذه الظاهرة لدى مفدي ممّا يوفر البناء الحوارى للنص، ويضمن عناصر التفاعل بين وحداته، فيعلو أكثر من صوت، ويتحدث أكثر من ضمير، وربما سرد الأحداث وقصّ الوقائع ووصف الشخصيات، فقد أفلح في أن يكون شاعرا وقاصّا ساردا معا، وهذا يرفع من درجة الإمتاع في تلقي القصيدة الشعرية عند مفدي، ويزيد من فرص الإدهاش وإضفاء ديناميكية وحركية لتنشيط أجواء فضاء القصيدة، حيث تتجسس بألوان أدبية سردية لكنها لا تفقد خاصيتها الشعرية، وإطارها العروضي، وإيقاعها الموسيقي، ففي قصيدة "فلسطين على الصليب" يشرف مفدي على إدارة الحوار بين الأطراف المذكورة (الشاعر وفلسطين والعرب والصهاينة) بل ويتقمص أدوارها، ويبالغ في إنصاف كل طرف منها حتى يوفيه نصيبه من المحاور، على نحو يفعله كتاب السرد، ويفلح في إدارة النقاش بين العناصر والأطراف المتناقضة، وفي لبوس رداء شخوصها المختلفين بكل موضوعية واحتراف، كل ذلك في قالب شعري مفعم بالإثارة، مثير للجدل، يقطع الشك باليقين حول مصير الفلسطينيين الذي هو من مصير الجزائريين المصممين "نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة".

3- في القصيدة هيمنة كبيرة للقرآن الكريم :

نلاحظ ذلك على ملابسات النص، حيث اقتبس مفدي "فاصلة" "سورة الحاقة"، وصيّر لها قافية لقصيدته، فقارئ النص تتبادر إلى ذهنه مباشرة، السورة القرآنية "الحاقة" وتحيله على فواصلها (أهلكوا بالطاغية... ريح صرصر عاتية... نخل خاوية... لهم من باقية... في الجارية... يومئذ واهية... ملاق حسابية... كانت القاضية...) فصاغ على منوالها (الصرصر العاتية... جماعها الجاثية... للهاوية... الخاوية... الغاشية... الجيف البالية. الخ).

ثم إنّ مفدي زكريا كان ممتلئاً غيظاً وحسرة، يتجرع مرارة الأسى، ويتألم لجراحات غائرة فتوسل هذه المرجعية القرآنية والنهاية المأسوية ليوثق بها الشعوب العربية التي أسقطت فلسطين من حساباتها، ويؤدّب أنظمتها المتخاذلة ويقرّع سلاطينها الجائرين - خاصة الذين استكانوا إلى التطبيع -، ولذلك تراه انتقى حرفي الياء والهاء وجمع بينهما في قافية تستهدف إخراج شحنة غضب مكتومة، فاستعمل الياء والهاء لأتھما صوتان يناسبان وضعه النفسي الحرج، ولن تجد هذه الكتلة المخبوءة المشحونة بالألم سبيلاً إلى الخروج إلا من خلال صوت الهاء الدال على الثلاثي، فكانّ الياء صوت امتداد الألم، وكانّ الهاء هي المتنفس، وهذا ما يلاحظ على امتداد القصيدة بأقسامها.

وليست هيمنة القرآن مقتصرة على ما ذكرناه ولكنّا تشمل نسيج اللغة بأكمله في تراكيبها وصيغها ومعجم مفرداتها من قبيل (الصّرصر، العاتية، قبله، آدم، الله، محرابها، حرم، سلطانيه،.... الخ) وهذه الميزة المتمثلة في هاجس القصص القرآني، والتناسل الديني متجلية بشكل واضح وعام في شعر مفدي زكريا.

ومن النماذج البارزة محاكاته لسورة الزلزلة في قوله:

هو الإثم زلزل زلزالها فزلزلت الأرض زلزالها (8)

حيث تتقابل الآيات مع أقطار الأبيات على النحو الآتي.

بأنّ ربك أوحى لها ... تتناص مع ... ألا إنّ ربك أوحى لها

وإذا زلزلت الأرض زلزالها ... تتناص مع ... فزلزلت الأرض زلزالها

وأخرجت الأرض أثقالها ... تتناص مع ... فأخرجت الأرض أثقالها

وقال الإنسان مالها ... تتناص مع ... يسائلها قائلاً ما لها؟

و"بأنّ ربك أوحى لها ... تتناص مع ... ألا إنّ ربك أوحى لها

4- جماليات التكرار:

تكرار الذاكر للمذكور دليل على حبه له والتعلق به، ومفدي يقدم على تكرار لفظ فلسطين لعدد المرات في جنبات القصيدة بكلّ أقسامها، فإن لم يذكرها باسمها فبإحدى صفاتها (يا مهبط الوحي، يا قبله، يا حجة الله، يا قدسا، يا لك من معبد، يا لك من حرم.... الخ) فإن لم يذكرها باسمها ولا بصفاتها، ذكرها - لا محالة - بضمير يعود عليها (أناديك، أدعوك، رماك، ألقى بك، صبّ بك، بكيت،...)

والحقيقة أنّ آلية التكرار من الآليات البارزة التي غزت حقل القصيدة العربية المعاصرة، بوصفها شفرة فنيّة كاشفة عن الكثير من الجوانب النفسيّة والدلالية لدى الشخصية المبدعة خلال هندسة هيكل القصيدة وتشكيل رؤاها، على نحو يوافق أحوالها الشعورية التي تتملكها في لحظات المخاض الشعري كما يحدث لشاعرنا مفدي، لأنّ «التكرار هو إلحاح على جهة هامة من العبارة، يُعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، وهو بذلك ذو دلالة نفسية قيّمة، تفيد الناقد الأدبيّ الذي يدرس النصّ، ويحلّل نفسية كاتبه، إذ يضع في أيدينا مفتاح الفكرة المتسلطة على الشاعر»⁽⁹⁾ حيث «إنّ سرّ نجاح الكثير من القصائد الحداثيّة يعود إلى هذه القيمة التي أغنت العديد من قصائد شعراء الحداثة (.....) ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن هذه الظاهرة كانت وما زالت ميزان رقي الكثير من نصوصنا الشعريّة التي تجاوزت منحها الصوتي، أو الإيقاعي إلى المستويين الدلالي والجمالي. وهذا يعني أنّ الشاعر الحداثي المميز هو الذي يجعل من هذه الظاهرة قيمة جمالية تزيد النصّ حسناً، والدلالة رسوخاً وثباتاً، والقصيدة أكثر ترابطاً ووحدة وتماسكاً.»

وفي ديوان اللهب المقدس مظاهر متنوعة لأنواع التكرار يقول مفدي:
 أيّا عبدٍ قادرٍ... كنّت القديرا وكان النضال طويلاً عسيراً
 شرعت الجهاد، فلَبَّكَ شعبٌ وناجَاكَ ربٌّ، فكان النّصير
 ونظمت جيشاً، وسُتت بلاداً فكنت الأمير الخبير الخطيرا⁽¹⁰⁾
 ومن أمثلة تكراره للكلمة قوله:

فلسطينُ... لا تجزعي فالسما ستسندُ للنصر، إخلاصية
 فلسطينُ... لا تقنطي، فالحمى سينصفه - اليوم- أحرارية⁽¹¹⁾

فالشاعر يعيد اسم فلسطين ويتلذذ بذكرها باستمرار تعبيراً منه على استمرارها وبقائها، واثبات حضورها.

وفي نموذج آخر يرد قوله:

بني وطني إنّ العلوم تفقّت كمانئها فيكم، ألا فاقطعوا اللبّا
 بني وطني يكفي النفاق، فبرهنوا أمّام الوري عمّا حشرتم به الكتب⁽¹²⁾

في بداية البيتين اطراد أسلوب النداء (بني وطني) في تركيب لغوي يقرب المسافة بين المنادي والمنادى، ويحكم بقوة الرابطة الأخوية بين أبناء الوطن الواحد، فيؤكد لها ويرسخها من خلال آلية التكرار.

5- التناص:

مع التاريخ ورموزه وشخصياته وأماكنه، وهذا التناص بوصفه آلية جالبة لحمولة المعني وكثافة المعارف، له سطوته على أشعار مفدي، وتجلى أكثر في ديوان إلياذة الجزائر، ولهذه القصيدة نصيبها من ذلك، فقد انفتحت على عديد الأحداث والتواريخ والمعارك لعدد الأقسام (قوم عاد، وثمرود، فرعون وقومه، قوم موسى)، وعديد الشخصيات على اختلاف أزمنتها وأمكنها (آدم، موسى، محمد، ابن صهيون، رهبان، خالد بن الوليد، سعد بن وقاص) وعديد الأماكن المتباعدة (حائط المبكى) ومن المعارك (حطين، أنطاكية، القادسية، بنزرت، الساقية). وإنّ القارئ المتفحص ليجد في شبكة النصّ بغيته من حاصل التعلقات النصية بين ماضيها وحاضرهما، خاصّة وأتة يولي اهتماما بالتراث العربي الإسلامي وتاريخه المجيد، وهذا التناص معين يذكي جذوة الشعر لدى مفدي ويجعلها دائمة الاتقاد لتصل راهن القصيدة بذاكرتها، وتقيم المحاور بينهما، ومن ثمّ فالتناص «أحد مميزات النصّ الأساسية التي تحيل على النصّ ولا تحيل إلى خارجه أو قائله وإثما تكشف عن المخزون التذكيري لنصوص مختلفة تشكّل حقل التناص»⁽¹³⁾.

6- جمالية وبراعة التصوير :

الشعر المعاصر يشتغل على استخدام الصورة الشعرية استخداماً عضوياً، لأنّها تشكّل المكونات الأساسية في العمل الأدبي عامة والشعر خاصّة وهي ليست مستحدثة فيه بل هي جزء من مبنى القصيدة، بل حسب ما يرى جابر عصفور "هي الجوهر الثابت والدائم فيه" وترتبط الصورة ارتباطاً وثيقاً بالتجربة الشعرية، وهي "طريقة من طرق التعبير ووج من أوجه الدلالة"⁽¹⁴⁾

ولأنّ الشعر المعاصر يعبر بالصورة فهي قد تعمق لدرجة الغموض، وهو الأمر الذي يعدّ خاصيّة جمالية لا تقلق القارئ بقدر ما تراهن على ثقافته وآلياته القرائية لفك الرّوي الشعرية الخفية واستجلاء جوانبها النفسية، وقد ترسم الصورة الشعرية المعاصرة في نمط عمودي بروح معاصرة، قريبة المأخذ، ميسورة الفهم مع براعة في التشكيل ورعة في التصوير كما في نماذج شاعرنا مفدي زكريا، لاحظ كيف صوّر في القسم الثالث فلسطين الكئيبة الجريحة في صورة امرأة رثة الملابس، منكسرة خاطر، خائبة يائسة، دامية الجراحات، كأنّها جارية تباع وتشتري، تتعرّض للشنق والصلب علي أيدي الصّهاينة المغتصبين الجلادين على مرأى ومسمع من أبناء جلدتها وهم غافلون يتفرّجون عن الكلاب تنهش كرامتهم وتسلب شرفهم، دون أن يتحرّك لهم ساكن.

7- جماليات اللغة :

ومن السمات البارزة في كيان القصيدة الشعرية المعاصرة لدى مفدي مسألة اللغة، وهي لبنة أساسية وفارقة، فجوهر الشعر مرتبط بالوجود اللغوي ويرتبط وجودهما معا بإثارة النشوة والدهشة والهزة النفسية والإعجاب. "إنّ من البيان لسحرا"، ولا يتحقق الإبداع الشعري إلا بالخلق اللغوي، أي لا يكون للشعر فعل السحر إلا إذا أحسنا أنه خلق جديد، وذلك عن طريق اللغة الخلاقة، أي اللغة البكر، لغة لها أسلوبها الجمالي الخاص، لغة مؤسّلة تشي بوضوح عن سرّ صاحبها، وتكشف علنا أسلوبه، ألم يقل "بوفون" "الأسلوب هو الرجل"؟ ألم يتعارف القراء جميعهم في عصرنا على أسلوب نزار قباني، ومحمود درويش، وأحمد مطر؟؟ لقد وصف النقاد محمود درويش بمانيفاستو العربية وحقّ قولهم فيه، فالنص الشعري عنده حقل ألغام متفجرة، وهذه الميزة الأسلوبية حاضرة ومتجلية بقوة عند مفدي القائل:

وتكلم الرّشاش جلّ جلاله فارتجت الدّنيا وضجّ المنبر

8- تعدّد الموسيقى الشعرية :

من أكثر الظواهر الفنية بروزا في الشعر العربي المعاصر، وأشدّها ارتباطا بمفهوم التجديد والتي كانت تنحصر عند القدامى في الوزن والقافية والبحور الخليلية. والحقيقة أنّه من الصّعب الفصل بين اللغة والموسيقى الشعرية في القصيدة المعاصرة، فهما مرتبطتان لدرجة التماهي فكلّهما يلبس ثانيه، لقد انسابت مفردات الأسطر الشعرية في قصيدة فلسطين بأجزائها الثلاثة على لحن بحر صاف هو بحر المتقارب، ذي التفعيلة المتكرّرة (فعولن) في جريان سوي ضمن انسجام اللغة والموسيقى مع موضوعهما بكل مفاهيمه .

ولا نبرح شأن اللغة الشعرية المعاصرة، فقد أضحت نبراسا دالا على صاحبه، إذ يمكن أن يتعرف القارئ - دون عناء - على أسلوب الشاعر، فقد بدا للعيان تجلي أسلوب مفدي الشعري، وتجلّت لغته الصّافية، وعرفت نبرته الخطابية الوطنية. لاحظ قوله:

جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصّانع القادر

ويا جنة غار منها الجنان وأشغله الغيب بالحاضر⁽¹⁵⁾

9- التّوهج:

وبالإضافة إلى ما سبق حول شأن اللغة في النموذج الأخير، فإننا نقف على سمة شعرية جديدة هي خاصية التّوهج وهي حالة شعرية يطرب لها الشاعر، وتهيج مشاعره، خاصة أثناء التّغني والتّعزّل بالجزائر، فيبدو الشاعر منتشيا مزهوا حتّى التّخاع كقوله:

جزائر يا لحكاية حبي ويا من حملت السلام لقلبي
ويا من سكبت الجمال لروحي ويا من أشعت الضياء لدربي
فلولا جمالك ما صحّ ديني وما إن عرفت الطريق لربي
ولولا العقيدة تغمر قلبي لما كنت أومن إلا بشعبي

وهذا الاهتمام بجلال المعنى وجمال المبنى تأتي له من خلال غزارته الإبداعية والفنية ومقدرته اللغوية بكلّ انزياحاتها وانفلاتاتها وتجاوزاتها إطار المعتاد من أساليب القول، فاستقلّ مفدي بأسلوبه الخاص الذي عرف به، وجادت قريحته بشاعرية جزائرية خالصة محضة.

وقد تعنف لغة التشطّي عند مفدي في مواضع أخرى مثل لغة الحرب التحريرية فتثير معاني الانفجار والانسطار وإحداث الدويّ، يقول:

وتكلم الرّشاش جلّ جلاله فاهتزّت الدّنيا وضجّ المنبر
وتزلزلت آياته لهابة لوّاحة أصغى لها المستهتر
والثار للألم المبرح بلسم يكوى بها العظم الكسير فيجبر
والغاصبون العابثون إذا هم سمعوا الحديث من الحديد تدبّروا
وإذا الجزائر بالسّلاح استعبدت فمصيورها بسلاحها يتقرّر⁽¹⁶⁾

فالأبيات من أرفع ما عرفت اللغة العربية من عيون الشعر لدى الفحول الكبار أمثال أبي الطيب المتنبي إلى أمير الشعراء أحمد شوقي إلى شاعر الأمة الأكبر محمد مهدي الجواهري.

10- خاتمة:

هذه محطات سريعة مقتضبة، ووقفات قليلة عجلّ، حول بعض ملامح التفرد الصوتي الشعري عند مفدي، عدّنا من خلالها جملة من السمات المتكررة في الخطاب الشعري لشاعر الثورة، ولا يدّعي مدّع أنّ باب البحث في سمات النصّ الشعري المعاصر لدى مفدي زكريا أقفل، بل إنّ البحث جار على الدوام، وأنّ تحليل الخطاب الشعري متواصل الجهود، مستمرّ الدراسات. وحسبنا في هذا المقام، تعاملنا مع واحدة من أجمل قصائده، حول أهمّ قضية وأولاها باهتمام الشعراء (القضية الفلسطينية)

*- ملحق:

1- سيرة الشاعر العظيم 'مفدي زكريا'

إنّ الأمم العظيمة الناجحة في تاريخ البشرية هي التي تحيي ذكرى النوابع والأبطال والأخيار من أبنائها في قلوب نشئها الصّاعد، حتّى يقتفي الأثر، ويأخذ العبر. يقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان علمه أبوه.

ومن صنّاع المجد وبُناته في الجزائر الحبيبة، الشاعر مفدي زكريا، شاعر الثورة، وشاعر المغرب العربي الكبير، وأحد فرسان النّظم في الشّعر العربي الحديث والمعاصر في الوطن العربي، فقد كان بركانا من الشّعر، وثائرا فعلت قصائده بفرنسا وجزائر الأفاعيل.... فطوبى لوطن يملك شاعرا كمفدي زكريا⁽¹⁷⁾ عمل على تدويل قضيته، وإشهار ثورته « أفخر بجزائريتي التي خولتني أن أفوز بالجائزة الأولى في مهرجان الشّعر العربي بدمشق سنة 1961م. والجائزة الأولى في نفس المهرجان بالإسكندرية سنة 1963، وأن أفوز بوسام الكفاءة الفكرية من الدّرجة الأولى من جلالة الملك محمد الخامس مباشرة بعد الأديب طه حسين. وبوسام الاستقلال الدّرجة الثانية من الرّئيس لحبيب بورقيبة »⁽¹⁸⁾

2- مولده و نشأته : في عام 1908 ولد " مفدي زكرياء " ، في بن يزقن في ولاية غرداية⁽¹⁹⁾ انتقل إلى عنابة فأثى على مبادئ اللغة العربية وعلومها وحفظ القرآن الكريم، وأكمل دراسته بتونس حيث واكب الحركة النضالية الوطنية بأشعاره مغاربا⁽²⁰⁾ وانخرط في صفوف الشّبيبة الدستورية حتى إنّه سجن جرّاء ذلك. وبعد عودته إلى الجزائر عيّن رئيسا للجنة التنفيذية في حزب النجم، وهي فترة كتبت فيها قصائد ذات شأن كبير مثل نشيد الفداء الذي كانت تغنيه الجماهير ومناضلو حزب نجم شمال إفريقيا. فداء الجزائر روعي ومالي ألا في سبيل الحرية فليحيا حزب الشّعب الغالي ونجم شمال افريقية⁽²¹⁾

كرس حياته منذ نعومة أظفاره « وكان الرقم الأوّل في الحركة الأدبية الدّاعمة لثورة التحرير الجزائرية وتخليصه من سلطة الاحتلال الفرنسي، حيث وضع نشيد الدّولة الحديثة»⁽²²⁾ وأظهر براعة شعرية نادرة في كتابة الأناشيد "فسجن عدة مرات. ثم فرّ إلى المغرب ومنها إلى تونس للعلاج على يد فرانس فانون، وقد كرّس حياته بأكملها لبلوغ استقلال الجزائر. توفي مفدي زكرياء يوم 03 رمضان 1397هـ، الموافق ليوم 17 أوت 1977 م خلفا وراءه إنتاجا أدبيا ثميناً و تاريخاً حافلاً بالأحداث و الأعمال الكبيرة. ⁽²³⁾

3- ما هي أهم مؤلفاته ؟ ⁽²⁴⁾ ديوان تحت ظلال الزيتون، ديوان اللهب المقدس، ديوان من وحي الأطلس، ديوان أمجادنا تتكلم، ديوان: إلياذة الجزائر. أما أعماله النثرية: فمنها: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. وله مسرحية بعنوان الثورة، وله: ست سنوات في سجون فرنسا / الجزائر بين الماضي والحاضر / حواء المغرب العربي الكبير في معركة التحرير / قصة اليتيم في يوم العيد.

4- ما هي مصادر الشعر لدى مفدي، وما هي الخصائص الفنية التي اجتمعت في أشعاره ؟
 1- قارئ مفدي يلقي حمولة معرفية متنوعة ، زيادة على الوظيفة الشعرية الماتعة، وقد ترجّح لدى دارسيه أنّ أوّل مصدر لمعين الشعر لديه هو القرآن الكريم، فكتاب الله تعالى أغزر الرّوافد صبا في شعر مفدي، وتجلّى في اللغة الشعرية البديعة. لاحظ قوله في قصيدة الذّبيح الصّاعد:
 قام يختال كالْمسيح ونيدا يتهادى نشوان يتلو النّشيدا
 باسم الثّغر كالملاك أو كالمطّ فل يستقبل الصّباح الجديداً (25)

2- المصدر الثّاني هو الأدب العربي بشعره ونثره، فالشّاعر مطلع اطلّعا ماسحا على تراث الأُمّة بدواوينه وأمثاله وحكمه وتاريخه، وقصصه ممّا كوّن لديه هذه الثقافة الشّاملة الجامعة المانعة، أظهر قدرة عجيبة على مجارة الشّعراء السّابقين ونديّة قويّة في معارضتهم، فالشّعر «لسان هذا الإنسان الصّادق الذي يترجم نبضات قلبه بحروف متوهّجة مدّادها يسري في عروق الحياة» (26)

فقال مفدي :

سل العروبة هل ضجّت لكشوانا وسل أميّة هل رجّت لبلوانا
 حيث يظهر افتتانه بشاعر الأندلس ابن زيدون وتأثره بنونيته الشّهيرة لذلك عارضها.
 أضحي الثّنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقينا تجافينا
 نكاد حين تناجيك ضمائرنا يقضي عليها الأسى لولا تأسّينا (27)

3- المصدر الثّالث هو التّاريخ. فقد أفلح مفدي في توظيف التّاريخ، فضمّن شعره حمولات معرفية ذات كثافة ثقافية عالية، خاصة التّاريخ الإسلامي فقد أنطق أماكنه وحاوّر شخصياته، واستفتى حوادثه، ويظهر ذلك جليا وبشكل قوي في ديوان إلياذة الجزائر، ومن أمثلة ذلك قوله:
 وانزل بدارات سرتا مطرقا أدبا فبين أضلّعها أبائنا الصيد
 وامش الهوينى ففي أحشائنا أمم وفي جوانحنا أسد معاميد
 دم الصّحابة معجون بتربتنا قد خلّدتها على الدنيا الأسانيد
الهوامش:

(1) مفدي زكريا شاعر النّضال والثّورة. محمد ناصر. ص10

(2) أنظر الجيلالي ضيف. بناء المجد. (مفدي زكريا) دار الخليل. 2013 حاسي بحبح الجلفة. ص9

(3) قصيدة نظمها الشاعر في سجن بربروس القاعة التاسعة في فيفري بمناسبة خذلان المنظمة الدولية 1957 للقضية الجزائرية في دورتها 13.

- (4) ديوان ابن زيدون. دراسة وتهذيب عبد الله سنده. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2005. ص 12
- (5) في 23 سبتمبر 1961 قصيدة ألقاها مفدي في مهرجان الشعر باسم الجزائر في دمشق
- (6) أمل دنقل. الأعمال الشعرية الكاملة. مكتبة مدبولي. القاهرة ط 1987. ص 326
- (7) مفدي زكريا. ديوان اللهب المقدس. موفم للنشر بالتعاون مع مؤسسة مفدي زكريا. الجزائر 2009. ص 279 إلى ص 288.
- (8) مفدي زكريا اللهب المقدس ص 273
- (9) ربابعة موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، جامعة اليرموك، الأردن، مؤتمر النقد الأدبي 13/10 تموز 1988 ص 15. ينظر أيضا نازك الملائكة. قضايا الشعر المعاصر. دار العلم للملايين بيروت. لبنان. دط. ص 276.
- (10) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 133.
- (11) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص 347.
- (12) مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم. ص 67
- (13) مصطفى السعدني. المدخل اللغوي في نقد الشعر. قراءة بنيوية. دار المعارف. القاهرة ص 19
- (14) جابر عصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. الطبعة الأولى 1992. المركز الثقافي العربي. ص 7.
- (15) مفدي زكريا. إلياذة الجزائر. ص 18
- (16) مفدي زكريا. اللهب المقدس. دار الكتاب بيروت
- (17) أنظر الجيلالي ضيف. بناء المجد. (مفدي زكريا) دار الخليل. 2013. حاسي بحبح الجلفة. ص 10. 11.
- (18) بلقاسم بن الله. مفدي زكريا شاعر مجد ثورة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1988. ص 18
- (19) حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، الدار المصرية اللبنانية، طبع عربية للطباعة و النشر الطبعة الأولى ماي 1997. ص 25، 26.
- (20) قال مفدي: دأبت منذ سنة 1955 في الدعوة لتحقيق هذه الفكرة السامية (وحدة المغرب العربي) والتغني بها وقيادة وفود حزبية لكل من تونس والمغرب والجزائر لتركيز أسسها عام 1939. أنظر الطيب ولد العروسي. أعلام من الأدب الجزائري الحديث. دار الحكمة للنشر. الجزائر. 2009. ص 111.
- (21) جيلالي ضيف. بناء المجد. مفدي زكريا. دار الخليل. ط 2013. ص 32
- (22) جيلالي ضيف. بناء المجد. نفسه. ص 27.

- (23) بلحيا الطاهر: تأملات في إيذاة الجزائر لمفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989 الجزائر، ص42
- (24) الطيب ولد العروسي. أعلام من الأدب الجزائري الحديث. دار الحكمة للنشر. الجزائر 2009. ص116
- (25) مفدي زكريا. اللّهب المقدّس. ص9.
- (26) ابراهيم رماني. أوراق في النقد الأدبي. دار الشّهاب للطباعة والنّشر. باتنة. الجزائر. ط. 1985. ص42
- (27) ديوان ابن زيدون. شرح. يوسف فرحات. النشر. دار الكتاب العربي بيروت. ط. 2. 1994. ص298

المراجع:

- (1) ناصر محمد 1987. مفدي زكريا شاعر النضال والثورة. جمعية التراث والثورة. الجزائر. ص 10.
- (2) أنظر ضيف الجيلالي 2013. بناء المجد. (مفدي زكريا) دار الخليل. حاسي بحبح الجلفة. ص9
- (3) قصيدة نظمها الشاعر في سجن بربروس القاعة التاسعة في فيفري بمناسبة خذلان المنظمة الدولية 1957 للقضية الجزائرية في دورتها 13.
- (4) ديوان ابن زيدون. دراسة وتهذيب عبد الله سنده. دار المعرفة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى 2005. ص12
- (5) قصيدة ألقاها مفدي في مهرجان الشعر باسم الجزائر في دمشق في 23 سبتمبر 1961
- (6) أمل دنقل. الأعمال الشعرية الكاملة. مكتبة مدبولي. القاهرة ط 1987. ص326
- (7) أنظر الجيلالي ضيف. بناء المجد. (مفدي زكريا) دار الخليل. 2013. حاسي بحبح الجلفة. ص10. 11.
- (8) بن عبد الله بلقاسم 2013 أنظر الجيلالي ضيف. بناء المجد. (مفدي زكريا) دار الخليل. حاسي بحبح الجلفة. ص10. 11
- (9) بن الله. بلقاسم مفدي زكريا شاعر مجد ثورة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1988. ص18
- (10) حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، الدار المصرية اللبنانية، طبع عربية للطباعة و النشر الطبعة الأولى ماي 1997. ص25، 26.
- (11) فتح الباب حسن. مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص26، 27.
- (12) قال مفدي: دأبت منذ سنة 1955 في الدعوة لتحقيق هذه الفكرة السامية (وحدة المغرب العربي) والتغني بها وقيادة وفود حزبية لكل من تونس والمغرب والجزائر لتركيز أسسها عام 1939. أنظر الطيب ولد العروسي. أعلام من الأدب الجزائري الحديث. دار الحكمة للنشر. الجزائر. 2009. ص111.
- (13) جيلالي ضيف. بناء المجد. مفدي زكريا. دار الخليل. ط 2013، ص32
- جيلالي ضيف. بناء المجد. نفسه. ص. (27)

- (14) بلحيا الطاهر: تأملات في إيالة الجزائر لمفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989 الجزائر، ص42
- (15) الطيب ولد العروسي. أعلام من الأدب الجزائري الحديث. دار الحكمة للنشر. الجزائر 2009. ص116
- (16) محمد ناصر مفدي زكريا، شاعر النضال و الثورة، دراسة و نصوص، طبعة ثانية، ص، 1 - 18.
- (17) مفدي زكريا. اللهب المقدس. ص9
- (18) ابراهيم رماني. أوراق في النقد الأدبي. دار الشهاب للطباعة والنشر. باتنة. الجزائر. ط1985. ص42
- (19) ديوان ابن زيدون. شرح الدكتور يوسف فرحات. النشر. دار الكتاب العربي بيروت. الطبعة الثانية 1994. ص298.
- (20) مفدي زكريا. ديوان اللهب المقدس. موفم للنشر بالتعاون مع مؤسسة مفدي زكريا. الجزائر 2009. ص279 إلى ص288
- (21) مفدي زكريا اللهب المقدس ص273
- (22) ربابعة موسى، التكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، جامعة اليرموك، الأردن، مؤتمر النقد الأدبي 10-13 تموز 1988، ص15. ينظر أيضا نازك الملائكة. قضايا الشعر المعاصر. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان د.ط، ص276.
- (23) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص133.
- (24) مفدي زكريا، إيالة الجزائر، ص347
- (25) مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم. ص67
- (26) مصطفى السعدني. المدخل اللغوي في نقد الشعر. قراءة بنيوية. دار المعارف. القاهرة ص19
- (27) جابر عصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. الطبعة الأولى 1992. المركز الثقافي العربي. ص7
- (28) زرار قباني. قصيدة عقدة المطر. الموسوعة العالمية للشعر العربي
- (29) مفدي زكريا. إيالة الجزائر. ص18
- (30) مفدي زكريا. اللهب المقدس. دار الكتاب بيروت. ص18.